و أدهن المأساة بالألوان

أضع الأصباغ على وجهي... أرسم بالألوان تقاطيع كانت لي... أدفن تحت الأصباغ الشحوب و الألم... أدهن المأساة بالألوان و أرصّها في الداخل بعيداً عن وجهي... لأبدو للجميع كما كنت دائماً... سعيدة ... متلألئة... أحاول بخطوط إعادة الاشراقة التي لم تبارحني منذ ولدت و قد كانت اشراقة بدون أصباغ... لكنها منذ رحلت عني... لم أترك نوعاً من أنواع الصبغ أطلسه على ألمي... فقط أبحث عما يخفيه عن الأعين . أنا مضطرة اليوم... عليَ المشاركة في حفل استقبال السفارة اللبنانية... إنهم يقيمون حفلاً بمناسبة عيد الاستقلال... هه!!! أي استقلال؟؟ هذا الذي يحتفلون به ... يحاولون الحفاظ على الشكل الاجتماعي للبنان... بإقامة هذا الحفل... يحاولون تخطي المشاكل و الآلام ليبقى المظهر الخارجي لماعاً... هنا نحتفل في الفنادق الكبرى و نشرب نخب لبنان ونتمنى كل الخير و كل السلام... نتمنى... نهديه الكلمات و العبارات ... و ندهن الأصباغ على وجوهنا و نذهب للاحتفال... نلبس الأقنعة لنحافظ على صورنا... و هناك... المسلحون يحتفلون بطرقهم الخاصة... أو يمنعون الاحتفالات... يصبغون الوجوه بالخوف و الرعب و الدماء...

أسمع صوت وليد توفيق عالياً في الغرفة المجاورة « شجر الحور دخان، النهر دخان، و رذاذ المطر الناعم فوق الجرح دخان ».

- أطفئ هذا الفيديو يا بني... أو اخفض صوته... لا تنثر فوق الجرح ملحاً... أنا أضع الأصباغ وأنت تسمع المأساة... الدموع الحقيقية الحارة تجرف الأصباغ « من ألبسك الثوب الأسود ؟ من قص ضفيرتك الشقراء ؟ » وتنجرف الأصباغ... و أتنهد عميقاً

- أرجوك يا بني هيا... اذهب إلى فراشك... سيحضر والدك بين لحظة و أخرى، يجب أن أنهي الطلاء... ألم أقل لك أننا ذاهبان لنسهر...
- ماما ، هل لبنان الذي يغني له وليد توفيق هو لبناننا ؟
- بالطبع يا بني و ليس في الدنيا غير لبناننا...

- لكن ما أراه هنا يختلف عمّا رأيته في « ألبوم » الصور.. الصور فيها مناظر رائعة.. أما هنا فالبنايات تحترق والناس يموتون... انظري هذا الطفل يبكي و لعبته تحترق.. « لي طفل يبحث عن لعبته في قبر أبيه »
- أرجوك يا بني حان وقت النوم... سأحدثك غداً عن كل ما تريد... و احكي لك عن لبنان... عن جماله وروعته... عن جباله و سهوله... عن أزهاره و أشجاره... عن بيتنا هناك... عن كرم الزيتون و شجرة البرتقال...

- أنت تسخرين مني يا ماما... تحدثينني عن لبنان و كأنه أجمل من باريس... لكن ما أراه في (التلفزيون) شيء آخر... لماذا لا تخبريننـي عن الحقيقة.. لقد صرت كبيراً... أريد أن أعرف... أريد أن أرافق بابا عندما يذهب لرؤية جدي... ألست لبنانيا يا أمي فكيف يكون ذلك و أنا لا أعرف لبنان... هل تعدينني بأن أذهب...
- ستذهب يا بني.. بالتأكيد ستذهب.. أما الآن فاذهب إلى فراشك و قبل أن تنام .. صل إلى الله من كل قلبك واطلب منه أن يرحمنا و يرحم لبنان... ليعود كما كان... و لنعود إليه جميعاً...
« من يطفئ برد الشمس بحرٍ الماء » و يسكت صوت وليد توفيق... أطبع قبلة على وجه ابني و يذهب إلى فراشه.. تراوده أحلام متباينة و يتساءل أهو لبنان الجمال و الروعة و الخضرة و المياه و الشمس الساطعة لبنانه.. أم لبنان الدخان و الحرائق و البيوت المهدمة و البطون الجائعة و الوجوه الباكية...

أصباغي جرفتها الأحزان.. و بانت الآمي ... نكشتها براءة طفلي « لبناني أنا و لم أر لبنان» مسكين يا ولدي.. أي لبنان تريد الذهاب إليه.. لبنان الذي تبحث عنه يعيش في قلوبنا و ذاكرتنا.. أرضه مفروشة في أعماقنا.. مياهه تسري في عروقنا.. حبه بنبض مع قلوبنا... لبنان الذي تبحث عنه لن تراه إلا في وجوهنا و على ألسنة ذكرياتنا... أما هناك حيث تريد أن تذهب فدخان ... دخان و ألم.. حرائق و أحقاد... رصاص و موت.. سلاح و خوف.. رمل و متراس و هروب... هروب... العصافير تهرب الى الحياة... الأزهار تهرب إلى الموت.. الناس يهربون إلى الاستمرار.. الى التنفس . فالأفواه لن تكف عن طلب الزاد.. و الصدر لن يكف عن طلب الهواء... و هناك جوع و اختناق.. و لتهرب من الاختناق و الجوع تنسى كل شيء... تترك كل شيء... تحمل قطع اللحم من فلذات كبدك و ترحل مع أول بارقة أمل.. مثلنا فعل الكثيرون... تركنا البيوت و القصور و الأراضي و رحلنا مع الذكريات... كل منا اعتقد أن الغياب لن يطول...

و مرت السنون الواحدة تلو الأخرى... كلما وقفت أمام خزانتي لارتداء فستان تذكرت فساتيني.. سهراتنا... فرحنا.. أصدقاءنا.. كيف سأقنع ولدي بأن ما أخبرته عن لبنان صحيح؟؟ لبنان الروعة و الجمال...بيتنا الجميل... شجرة البرتقال التي زرعها جده يوم ولد أبوه... كان أولاد الحي يلعبون في فيئها... و كم تمنى جده أن يراه يلعب هناك كيف سأقنعه بأنها كانت رائعة حتى أتى عليها ذلك الصاروخ اللعين.. أحيانا أشكر الله أنه كان صغيراً و لا يستطيع تذكر صوت الانفجارات و القذائف التي كانت تقض مضاجعنا.. ثم أقول ليته كان كبيراً لتذكر الدار و الدوار... و عرف في أي نعيم كنا نعيش...

الساعة تدق التاسعة.. لن يلبث أن يفتح الباب ليقول لي ألم تنتهي بعد... لا أحب أن أصل متأخراً... لم يهدأ تفكيري... أتساءل كيف سيستجيب عقله البريء لتناقضات الحياة هناك... لتناقضات المناطق و المنطق ليس هذا فقط بل للتغيرات التي تطرأ عليها مع كل لفحة ريح... أنا نفسي أحيانا لا أفهم.. لم أحب السياسة يوما و لم أرغب التعمق في مبادئها و خطوطها و تعرجاتها مثلما كانت تفعل الكثيرات من زميلاتي... كنت دوماً أفضل الأدب... و كل شيء كان غزيرا.. كنا نعبَ ما نشاء من كل شيء.. من يومها كانت التناقضات واضحة لكن الإنسان كان إنسانا... فلم نشعر بالفوارق...

اليوم الإنسان لم يعد إنساناً بل ربما آلة للحرب تتحرك بحسب رغبة هذا و ذاك... علت الحواجز... و ارتفعت العوازل... و تكد ست.. أكياس الرمل و تكهربت خطوط التماس... الوضع بات مقرفا.. من يريد لأبنائه الترعرع في أجواء التلوث؟؟ لا يهم أي نوع من التلوث... فكري... عقلي... بيئي و جسدي.. كلّ حمل أولاده و هرب... وكما فعل الكثيرون فعلنا
نيران الغربة.. و سعير الحنين... أفضل من أتون النار في الداخل... و اليوم نحتفل... بماذا؟؟ عيد الاستقلال... أمسح دموعي أغسل وجهي... أضحك من الأعماق.. أحسَ و كأن صوته أتاني مجدداً « هيا ألم تنتهي بعد... لا أحب أن أصل متأخراً»

أعود إلى المرآة أرسم بالأصباغ وجهي المشرق الضاحك... أحاول جاهدة اتقان الرسم لاخفي تجاعيد الغربة وشحوب الألم... أكان الأجدر بنا أن نبقى هناك؟؟ نشارك في صنع الاستقلال الحقيقي؟؟ أكان الأجدر بنا أن نصمد و لا نتخلى عن بيوتنا و أرضنا و تاريخنا... و لكن لو بقينا كان يجب أن نقف في أحد الصفوف.. و نحن لا نريد الصفوف نريد الوطن.. وإن لم نقف نحن سيقف أولادنا يوماً و نفقدهم.. لأن الوقوف لم يعد ناضجاً... مجرد تصنيف عشوائي مخيف... تذكرت شجرة البرتقال... ذلك الصاروخ اللعين أودى بها ... كان يجلس تحت ظلالها أطفال من المنزل المجاور... كانوا يلعبون... يخطون عليها أحلامهم إلا أن الصاروخ سرقهم مع أحلامهم..

كادت الأصباغ تنجرف من جديد... حين سمعت القفل يدور في الباب و يعلو صوته حقيقياً...
- مساء الخير... ألم تنتهي بعد... لا أحب أن أتأخر...
- دقيقتين و أنتهي...
- ما بك... ما الأمر؟؟
- ألم تستطيع الأصباغ إخفاء الجلد...
- و هل تخفيها عني يا عزيزي... أعرف ما بك.. أعرف ما بنا جميعاً... لكن علينا الذهاب للمحافظة على الوجه المشرق... لبنان سيبقى... و سنحافظ على وجهه المشرق على الأقل في الخارج...
- هذا الوجه المشرق باستطاعتنا إعادته بسرعة بعد الراحة الداخلية أحسني لن أستطيع الصمود اليوم... الجميع سيبتسمون... لكني أغلي.. ربما سأبتسم.. لكننا جميعاً نحترق... فلمَ نجتمع... و لمَ هذا الاستقبال اصلاً...

- دعينا نشارك... دعينا نجتمع في مكان نعتبره لبرهات أرضنا... علنا نجد بعض الدواء يطيب جروحنا المفتوحة... ا شكري الله دائما يا عزيزتي... لقد فقدنا المنزل و المال.. نعم لكن الأرض تعيش في داخلنا... الوطن ينمو في عروقنا و سينتقل إلى أولادنا شئنا أم أبينا... أليس ذلك أفضل من أن نكون في منزلنا و نفقد الأرض في قلوبنا.. و عاجلاً أو أجلاً سنعود... سيعودون و يزرعون الأرض من جديد خيراً و سلاماً.
- متى... متى.. يكون ذلك يبدو لي بعيداً...
- هيا لنذهب الآن لا أحب أن أتأخر...